حكام مصر السودانيون:
كافوري الإخشيدي نموذجاً

أ.د. يحيى فضل طاهر

د. أحمد حسين عبد الرحمن

قسم الآثار-كلية الآداب-جامعة الخرطوم

المستخلص

تتناول هذه الورقة التعريف بأحد الشخصيات البارزة في العصر الإسلامي والتي تجاهلتها المصادر العربية كثيرا، وكذلك السودانية وهو القائد السوداني كافور الإخشيدي والذي كان له إسهام واضح في التاريخ الإسلامي من خلال حكمه لمصر لحوالي ثلاثة وعشرين عاماً باعتباره امتدادا لسلسلة الحكام السودانيين الذين حكموا مصر على امتداد تاريخها الطويل، حيث تزخر سيرته بالعديد من الجوانب البارزة والمضيئة، ولعل التجاهل لدور هذا القائد ربما جاء نتاجا للأصول التي ينحدر منها، وقد وضحت الجذور الاجتماعية والثقافية له من خلال ما كتبته بعض المصادر إلى جانب مقارنة بعض السمات الشخصية التي بينت أصوله السودانية، كما اتضحت مساهماته البارزة والكبيرة خلال حكمه لمصر.

الكلمات المفتاحية: العصر الإسلامي، كافور الإخشيدي، مصر ، الصفات الشخصية، المصادر العربية

Abstract

The purpose of this article is to introduce one of the outstanding personalities of the Islamic era who has been largely ignored in Arabic and Sudanese sources. The Sudanese ruler in question is Kafur al-Ikhshidi, who made a distinct contribution to Islamic history by ruling Egypt for some twenty-three years, joining the ranks of Sudanese rulers who ruled Egypt during its long history. His biography is filled with many prominent and luminous aspects and perhaps ignoring the role of this leader was a consequence of the origin he came from. His social and cultural roots were evident from some sources, and some personal traits that revealed his Sudanese origin were also compared. His significant and important contributions were also evident during his rule over Egypt.

Keywords: Islamic era, Kafur al-Ikhshidi ,Egypt , personal traits , Arabic sources

مقدمة:

شهد السودان على مر تاريخه الطويل مع مصر العديد من علاقات التبادل الثقافي والاجتماعي والسياسي والتي اتسمت بالطابع الودي تارة والجوانب العدائية تارة أخرى.

فمن المعروف أنه كانت هناك سيطرة مصرية على بلاد السودان منذ المملكة المصرية الحديثة عندما أرسلت الملكة حتشبسوت حملة إلى بلاد بونت والتي تشير بعض المصادر إلى أنها السودان بغرض السيطرة على المنطقة واستغلال مواردها المعدنية، كما لعبت قوات الدولة المصرية الحديثة دورا كبيرا في القضاء على مملكة كرمة السودانية 2500 ق م– 1500 ق م.

وفي المقابل فقد كان هناك وجود سوداني كبير خلال الحقب المبكرة من تاريخ مصر حيث تمكن ملوك الأسرة 25 السودانيون من حكم مصر لمدة تجاوزت الأربعين عاما. هذا ولم تقتصر السيطرة على الفترات المبكرة حيث كان هناك وجود كبير للسودانيين خلال العصر الإسلامي والذين بدورهم وصلوا إلى سدة الحكم في دولة مصر من بينهم أبو مسك كافور الإخشيدي الذي ظلمه التاريخ مرتين مرة حين ركن إلى هجاء الشاعر المتنبي، ومرة أخرى حين لم يبرز دور هذا القائد العظيم في مصر وبلاد الشام. كما ظلمه السودان نفسه حينما تم إغفال ذكره والاحتفاء به مثلما يحدث مع بيي (بعانخي) وترهاقا وغيرهم.

ولعل إغفال ذكر تاريخ كافور وإنجازاته ترجع إلى أنه كان من الخصيان الذين لم تذكر كتب التاريخ والأدب شيئاً عن محاسنهم وأدوارهم البطولية التي ترجموها عبر الحقب المختلفة. ولعل من دواعي ذلك هو استبعاد تولي الخصيان لأمر الحكم خاصة في العصر الإسلامي.

ولما كان الخصيان يشكلون حلقات الوصل بين قصور النساء وقصر الملك، وينقلون الأسرار من وإلى النساء، فإنهم بهذه الطريقة اكتسبوا معلومات هائلة عن القصر وما يدور خلف الجدران؛ خولتهم لتبوء أرفع المناصب سواء أفي القصر أو خارجه. ولم تكن حادثة تولي كافور لحكم مصر وحدها مما دونه التاريخ وإنما تلتها أحداث مماثلة ومنها المناصب القيادية للرحالة الصيني المسلم «تشنغ» الذي قاد أسطولاً صينياً حتى سواحل إفريقيا، ولا زالت الصين تخلد ذكرى رحلته عام 1405م، ومن هؤلاء العلماء والشعراء والعباقرة وأصحاب المواهب الخارقة.

والشاهد أن كافوراً كان من أشهر الخصيان الذين وصلوا إلى سدة الحكم بعد أن استعبد من النوبة، ثم علّمه ودرّسه وأكسبه كل علوم السياسة وفنون الحرب والي مصر آنذاك (الإخشيد) قبل أن يعينه مربياً لأولاده، إلاّ أن كافورا صرف الأبناء عن الحكم بالملاهي والملذات بعد موت والدهم؛ ليظفر بالحكم، ثم

قاد حروباً شرسة وصل بها إلى حلب في سوريا، وأحدث تحولاً كبيراً في سياسة مصر وحكمها آنذاك.

مولده ونشأته:

ولد كافور الإخشيدي بالسودان في عام 946م وفي رواية أخرى عام 968 م وهو أو أبو المسك كافور أحد حكام الدولة الإخشيدية، وقد أصبح كافور سنة 966 م واليا من قبل العباسيين على مصر حيث حكمها ثم توسع إلى بلاد الشام حيث دام حكمه لمدة 23 عاما، وهو صاحب الفضل في بقاء الدولة الإخشيدية في مصر.

حياته قبل الولاية وصفاته الشخصية:

عندما بلغ عمره العاشرة أو (الرابعة عشرة) في رواية أخرى، أخذ إلى مصر سبي حرب أو رقيقاً حيث كانت التجارة من هذا النوع منتشرة بصورة كبيرة، وقد يكون جلبه إلى مصر رسميا من خلال تنفيذ اتفاقية البقط المشهورة التي كانت بين المسلمين وحكام النوبة المسيحيين التي عقدت في عام 652م.

هذا ولم تختلف حياته كثيرا عن جُف جد الأسرة الإخشيدية الذي جلب إلى الخليفة المعتصم من أسواق فرغالة إلى بغداد، وقد كان سيرة كافور من أغرب السير وكانت حوله قصص وأحاديث كثيرة وهو كما وصفه البعض بطل الأبطال.

جاء كافور لمصر مع من جلبوا إليها ليباعوا في أسواقها من السودان أو النوبة، ولم يكن كافور على سواده وسيماً، بل كان دميماً قبيح الشكل مثقوب الشفة السفلي مشوه القدمين بطيئاً ثقيل القدم، لم يعرف حياة القصور، فوقع في يد أحد تجار الزيوت فسخره في شئون شتي (المقريزي. 26).

وقاسي كافور الأمرين وهو يعاني من أحمال ناء بها كاهله، فبين نير معصرة الزيت التي يديرها، يدوس برجليه الكُسب ثم يقوم بحمل الأواني علي منكبيه ليجر بعدها العجلات بيديه في عمل يومي شاق، يفترش الأرض بعدها لينام في النهاية كأنما قد كتب عليه أن يظل متمرغاً في الزيت بلا نهاية، بل ولقي الكثير من العنت من سيده. كل هذا العناء جعل من كافور رجلاً قوياً وقادراً على مواجهة الصعاب بل وشد من أزره حتى إذا خرج من تحت قبضة الزيات وقع في يد محمود بن وهب بن عباس الكاتب، وهنا بدأت أولى خطوات مسيرة حياته تتغير نوعا ما إلى مكانة مرموقة. فكانت تلك النقلة هي أول الطريق نحو المجد الذي أفضي به إلى الخير فعرف كافور السبيل نحو القراءة والكتابة فنفض عن يديه متاعب المعصرة وأدران الزيت فالسيد الجديد ابن عباس الكاتب هذا كان موصولاً بمحمد بن طغج ويعرفه منذ كان قائداً من قادة تكين أمير مصر وقتها

وقبل أن يصبح ابن طغج على حكم مصر (الأبياري.1962م. 132 - 135).

شاءت المقادير أن يحمل كافور هدية من مولاه إلى ابن طغج، وحين رآه الإخشيد انفتح له قلبه من أول وهلة، فسعي لشراء هذا الصبي الأسود مقابل ثمانية عشرة ديناراً دفعها ثمناً له.

وهنا بدأت المسيرة التي كان الجد والاجتهاد شعار صاحبها والسبيل لبلوغ مرادها، فمنذ أن حل كافور بمصر وهو يملك نفساً كبيرة ويحمل بين جوانحه قلباً كبيراً وآمالاً عريضة، لم لا وهو الذي راوده الحلم وهو عبد صغير يباع ويشترى، ولم يكن حلم مثل هذا الدميم القبيح أكثر من أن يجد في كنف أي سيد يملكه سوى سكن يأويه ولقمة يسد بها جوعه، وشربة ماء يروي بها ظمأه (الأبياري.1962م.135).

كان كافور الإخشيدي وصاحبه عبدين أسودين، فجيء بهما إلى قطائع ابن طولون، صاحب الديار المصرية وقتئذ، ليباعا في أسواقها، فتمنى صاحبه أن يباع لطباخ حتى يملأ بطنه بما شاء، وتمنى كافور أن يملك هذه المدينة ليحكم وينهى ويأمر، وهذا يشير بوضوح إلى أنه كان طموحه عاليا منذ صغره، ورغم وضعه الذي لا يسمح بأن يفكر في أن يكون مالكا لمدينة بأكملها وهو ما يزال رقيقا تحت خدمة سيده. وقد بلغ كل منهما مناه، فبيع صاحب كافور لطباخ، وبيع كافور لأحد قواد المصريين فأظهر كفاءة واقتدارًا. ولما مات مولى كافور قام مقامه، واشتهر بذكائه وكمال فطنته حتى صار رأس القواد وصاحب الكلمة عند الولاة، وما زال يجد ويجتهد حتى ملك مصر والشام وغيرهما.

مرّ كافور يومًا بصاحبه فرآه عند الطباخ بحالة سيئة، فقال لمن معه: لقد قعدت بهذا همته فكان كما ترون، وطارت بي همتي فكنت كما ترون، ولو جمعتني وإياه همة واحدة لجمعنا عمل واحد، وتشير بعض المصادر إلى أن هناك بعض المنجمين تنبئوا له بحكم مصر، وقد طلبوا منه مكافأة ولو قليلة نظير تنبأهم بذلك، وقد كان فطنا وذكيا ولبقاً حيث أدرك فيه ذلك مولاه الإخشيد عند اختباره في مواقف عدة جعلته يصرح بعدها بأنه سيورث دولة ابن طغج لهذا الأسود مما يدل على قناعته بقدراته وحكمته لقيادة تلك الدولة، ولم يفوت كافور تلك الفرصة وهذا المدح والثناء والإعجاب الذي غمره به الإخشيد، فظل ملازما له طوال الوقت ينجز له ما يطلب ويهتم بكل أموره ويشبع نفسه بكل ما يسعى إليه كحال جميع الملوك. كما كان كافور متصوفا ويحب الرسول ﷺ وكان يحب آل بيت الرسول (الأبياري.1962م.137).

حياته بعد الولاية (فترة حكمه وإسهاماته):

ارتبط بزوغ أبي المسك كافور في الدولة الإخشيدية بالظروف السياسية لهذه الدولة، فقد استطاع أن يدير دفة الدولة عقب وفاة محمد بن طغج الإخشيد، حيث إن أنوجور (محمود) بن محمد بن طغج كان

لا يزال صبيًا في الخامسة عشرة من عمره، ويروى أن أبا المسك كافور لم يكن ليتيح لأونوجور هذه الفرصة كي يمرن نفسه علي الحكم فيفيد منه ولم يكن ليدعه يظهر للناس حتي لا يعرفونه، أفل نجم أونوجور سريعاً ليسطع نجم كافور الذي دعا له الخطباء علي المنابر دون أونوجور، في الوقت الذي كان ينال فيه أونوجور ما خصصه له كافور من مال بلغ أربعمائة ألف دينار في العام (الأبياري. 1962م. 120).

توليه لإمارة دمشق:

كان كافور قد تولى إمرة دمشق بعد سيده الإخشيد محمد بن طغج بن جف وكانت وفاة الإخشيد في 335هـ بدمشق فلما مات أقعد ابناه أبو القاسم أونوجور وأبو الحسن علي أبناء الإخشيد مكان أبيهما وكان المدبر لأمرهما كافور ثم سار كافور إلى مصر فقتل غلبون المغربي المتغلب عليها وملكها وقصد سيف الدولة دمشق فملكها ثم إن أهل دمشق خافوا من سطوة سيف الدولة فكاتبوا كافورا فجاء إلى دمشق فملكها سنة 336هـ فأقام بها يسيرا ثم ولى بدر الإخشيدي ويعرف ببدير ورجع كافور إلى مصر إلى أن توفي في سنة 356هـ، وذكر أنه توفي بمصر وحمل إلى بيت المقدس وقيل إنه دفن بداره بمصر، كما أشارت مصادر أخرى إلى أنه توفي عام335هـ كما ورد في موسوعة تاريخ دمشق(وَلِيَ إِمْرَةَ دِمَشْقَ بَعْدَ سَيِّدِهِ الإخشيد مُحَمَّدِ بنِ طُغْجَ بْنِ جُفْ، وَكَانَتْ وَفَاةُ الإخشيد فِي سَنَةْ أَرْبَعٍ - وَيُقَالُ: خَمْسٍ - وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ بِدِمَشْقَ، فَلَمَّا مَاتَ أُقْعِدَ ابْنَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ أُونوجور وَأَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ ابْنَا الإخشيد مَكَانَ أَبِيهِمَا، وَكَانَ الْمُدَبِّرَ لِأَمْرِهِمَا كَافُورُ، ثُمَّ سَارَ كَافُورُ إِلَى مِصْرَ، فَقَتَلَ غَلْبُونَ الْمَغْرِبِيَّ الْمُتَغَلِّبَ عَلَيْهَا، وَمَلَكَهَا، وَقَصَدَ سَيْفَ الدَّوْلَةَ دِمَشْقَ، فَمَلَكَهَا، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ دِمَشْقَ خَافُوا مِنْ حَيْفِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، فَكَاتَبُوا كَافُورًا، فَجَاءَ إِلَى دِمَشْقَ، فَمَلَكَهَا سَنَةَ خَمْسٍ - وَقِيلَ: سَنَةَ سِتٍّ - وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ، فَأَقَامَ بِهَا يَسِيرًا، ثُمَّ وَلَّى بَدْرًا الإخشيدي، وَيُعْرَفُ بِبُدَيْرٍ، وَرَجَعَ كَافُورٌ إِلَى مِصْرَ) (ابن منظور. 1984م. 345).

توليه لمصر:

كان وصول كافور إلى مصر مع وصول كتاب الخليفة المطيع بتولية أونوجور ولاية مصر والشام حيث كان لأبي المسك الأمر دون أونوجور. آلت الأمور لأبي المسك كافور الذي ملك السلطة والمال في يده، وضاق الأمر بأونوجور وقتها فترك العاصمة وأدعى بأنه سيخرج للهو والصيد، فاتجه إلى ناحية الرملة بأرض فلسطين ليمكن نفسه ويجمع شتات من حوله ومن هم يؤيدون أبا المسك، وفي قرارة نفسه ونيته انتزاع ما سُلب من ملكه، وقد قسم الجيش إلى قسمين قسم له وآخر لكافور، ولكن أُم أونوجور كانت أبصر من ابنها ورأت بأن الضجر بأبي المسك لم ينته إلى قلوب كثيرة من ذوي النفوذ، والجند على الدوام رهن بأرزاقهم يعطون قلوبهم حيث يضمنونها، ورأت أن ما في خزائن ابنها لا يكفي فهو شيء قليل لا يكاد أن يكفي ما هم طامعون

فيه، فحذرت ابنها من مغبة الهزيمة، ورأت في الوقوف إلى جانب أبي المسك مزية ومكسباً لأسرتها، وهنا نجد أن كافور قد تنازل عن جانب من كبريائه وبطيب خاطر كتب لأونوجور يسترضيه ويمنيه، ولكن الملك الصغير كان قد نسي مسألة الملك هذه وقنع بما يصله من دراهم قليلة، وهنا أصبحت الأمور جادة وبقي كل شيء في يدي أبي المسك من جديد، وقد كان الخطباء في المنابر يدعون لكافور دون أونوجور (المرجع نفسه. 123-126).

وظل الأمر هكذا حيث مات أونوجور في سنة 249هـ (الأبياري. مرجع سابق. 120) وقد عاش أبو المسك كافور في ظل أونوجور سلطاناً حقيقياً ممسكاً بكل مقاليد الحكم مدة أربعة عشرة عاماً، وقيل أن كافور دس له السم ليتخلص منه وليزيحه من طريقه، فتولى من بعده أخوه علي بن الإخشيد مقامه والذي كانت نفسه تمتلئ رعباً من سطوة كافور وشدة بأسه، وكافور يعطي لعلي بن الإخشيد مثلما كان يعطيه شقيقه أونوجور في السابق، ولكن السلطة التي قبض عليها كافور بشدة جعلته يُضيق الخناق عليه، وقد سيطر على مقاليد الأمور فلم يترك علياً يظهر إلى شعبه أو يتحدث في ندواته إلا كان معه، مما جعل الصبي ينحدر إلى حياة اللهو والدعة ثم اتجه للانقطاع للعبادة يجد فيها سلواه، حتي إذا أرهقته العبادة شمر عن ساعديه ليبحث عن حقه المسلوب يطلبه، فما كان من كافور إلا أن عجل بموته بعد أن دس له السم أيضاً. حيث ظل كافور صاحب الأمر أيام ولاية علي ولم يترك أبو المسك الوارث الثاني بعيدا عن رعايته وإنما أخذه كما يحب وأعده كما أراد، وبوفاته عام 355 تولي كافور ولاية مصر دون الصغير أحمد بن علي (المرجع نفسه. 128).

ولم يحصل كافور على تفويض من قبل الخلافة العباسية. بيد أنه لم يواجه اعتراضًا من قبلها، وكان يلقب بالأستاذ، ويكنى بأبي المسك، وكانت السياسة الخارجية لكافور استمرارًا لسياسة محمد بن طغج الإخشيد في الحفاظ على علاقة متوازنة مع كل من العباسيين والفاطميين.

وقد قاسي كافور الأمرين وهو يعاني من أحمال ناء بها كاهله حتى جعلت منه رجلاً قوياً وقادراً على مواجهة الصعاب إلى أن لقب بالأستاذ، ويكنى بأبي المسك، وبصفة عامة كان قريبًا من قلوب المصريين وينظر بنفسه في قضاء حوائج الناس والفصل في مظالمهم، وقد كان كريما وسخيا حيث درج على إقامة وليمة ضخمة تحوي مختلف أنواع الطيبات من اللحوم والحلوى وغيرها، كما اشتهر بإكرام العلماء والفقراء والمحتاجين، كان سليم النفس بريء القلب نقي الفؤاد، فلم يستأسد ولم يتنكر ولم يجحد، وقد كان في عزه كما كان في مهانته وكان في ملكه كما كان في عدمه، وما يجدر ذكره أن في عهده اتسع نشاط دعاة الفاطميين في مصر حيث توسع نفوذهم أبان فترة حكمه وصارت لهم سطوة ومكانة في منذ تلك الفترة.

ومن إنجازاته أنه استطاع أن يسيطر على الدولة ويعيد الاستقرار ويضبط الأمور بعد الاضطراب

عند موت الإخشيد. كما استطاع أن يحسن الاقتصاد ويصرف المال بطريقة متوازنة. وحل البلاء والغلاء والفتن بمصر بعد موته (المقريزي. مرجع سابق. 26 -28).

تحقيق سودانيته من خلال شواهد الآثاروالتاريخ:

هناك العديد من المؤشرات التي تبين سودانية كافور وذلك من خلال بعض السمات الثقافية والملامح الاجتماعية التي ارتبطت به، حيث أشارت العديد من المصادر التاريخية إلى أن كافور الإخشيدي تم جلبه من السودان إلى مصر على أنه خصي إبان فترة اتفاقية البقط التي عقدت بين الدولة الإسلامية في مصر وبلاد النوبة في عام 652 وقد تم إرسال كثير من العناصر البشرية إلى مصر بغرض الاستفادة منهم في الأعمال المنزلية والمزارع، كما تم استخدام بعضهم جنودا مقربين من السلاطين والحكام، وقد كان كافور الإخشيدي من بين الذين تمت الاستعانة بهم في هذا المجال.

أما من خلال بعض صفاته الجسمانية فقد اتضح انه مثقوب الشفاه كما قال المتنبي:

وأن ذا العبد المثقوب مشفره تطيعه ذي العضاريط الرعاديد

(المتنبي. 1983م. 507)

والشيء نفسه الذي أكدته المصادر التاريخية مثل المقريزي حيث أكد أن شفته السفلي كانت مثقوبة (المقريزي. مرجع سابق. 26)، وقد شرح العديد من الشُّرّاح مثل أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي قول المتنبي بأنه تشبيه بمشافر البعير الذي يثقب للزمام.

ومن المعروف أن عملية ثقب الشفاه هي عادة سودانية قديمة ترجع إلى فترات مبكرة من العصر الحجري الوسيط في السودان (حوالي 13000 ق م) وقد كانت هذه العادةِ مشتركةً ومعروفةً في السودان بحدود فترات العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث، كما وُجِدَ أيضاً في دفنِ حضارة كرمة (2500 – 1500 ق م) في شمالِ السودان وفي جبل مويا بوسط السودان وعلى مناطق النيل الأزرقِ. أما بالنسبة للفتراتِ التاليةِ فقد وجد بصورة نادرة في فترات مروي وما بعد مروي، ولا زالت هذه العادة تمارس لدى بعض قبائل وسط السودان وكردفان ودارفور وجنوب السودان حيث إنها تعد مصدرا للزينة والجمال.

ولعل ما يشير إلى هذه الظاهرة هي أن الأداة المستخدمة فيها والتي تعرف بـ(سداد الشفاه) (Lip plug) بجانب الظاهرة نفسها لم تكن ذات ارتباط بالموتى ولم توجد في المدافن إلا أنها وجدت في كثير من

مستوطنات الحضارات السودانية المبكرة.

وعليه فيرجح أن كافور الإخشيدي كان من مناطق السودان المذكورة أعلاه التي كانت تمارس هذه العادة في الفترة الوسيطة. كما أن من شواهد التاريخ التي تؤكد سودانيته أن كافور الإخشيدي جند الكثير من السود أثناء حكمه لمصر في الجيش والذين بدورهم ساعدوا في تحقيق العديد من الانتصارات لدولته (المقريزي. مرجع سابق. 33).

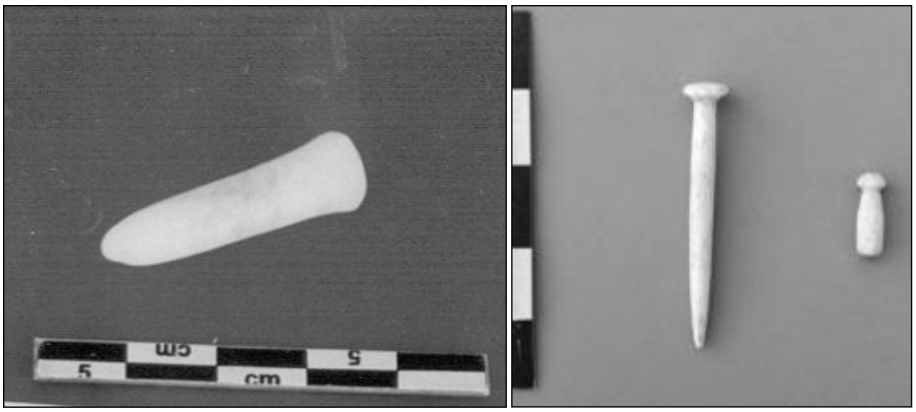

لوحة رقم (1)

سداد الشفاه(Lib Plug) ترجع لفترات ما قبل التاريخ من مناطق النيل الأبيض (يسار) ووسط السودان (يمين) عن: Sadig 2010

لوحة رقم (2)

تبين سداد الشفاه (Lib Plug) مستخدمة حاليا في بعض مناطق النيل الأبيض

سودانيته في الأدب من خلال شعر المتنبي:

شغل أبا المسك كافور دولة بني الإخشيد قرابة (23) عاما أو تزيد قليلاً كانت هذه الدولة قد دام حكمها لمصر مدة (34)عاماً، عاش كافور يدبر أمور الحكم فيها مع مولاه، حتي لقد قيل أن هذه الدولة ما حكمت بقدر ما كان الحكم فيها لكافور ذاته، بل ويمكن القول أن دولة بني الإخشيد هي التي جعلت الطريق ممهدا ليفتح سبيل حكم مصر أمام هذا الرجل، الذي ملأ مكانه كما لم يملأه أحد من قبله، حتي أنه شغل شعرائها فنجد شاعراً بقامة أبي الطيب المتنبي مدح كافورا فأنصفه، وحين انقلب عليه وهجاه لم ينصفه، وقد كانت له قصة مخلدة مع الشاعر المتنبي بعدما خذله كافور الذي وعده بالعطايا والهبات؛ فهجاه أبو الطيب المتنبي بواحدة من أشهر قصائد الهجاء في التاريخ التي طافت أرجاء المعمورة ولا تزال تحفظ وتردد حتى يومنا هذا:

عـيـدٌ بـأيّـةِ حـالٍ عُـدتَ يـا عـيـدُ بمَـا مَضَـى أمْ بـأمْرٍ فيـكَ تجْـديـدُ

ثم يقول:

صَـــارَ الخَصِـيّ إمَـامَ الآبِقِينَ بِهَـا فـالحُرّ مُسْـتَعْبَـدٌ والعبـد مَعْبُودُ
مَنْ عَلّمَ الأسْـوَدَ المَخصِـيّ مكرُمَـةً أقَـوْمُـهُ البِـيضُ أمْ آبَـاؤهُ الصِّـيـدُ
أمْ أُذْنُـهُ في يَـدِ الـنّـخّـاسِ دامِـيَـةً أمْ قَـدْرُهُ وَهْـوَ بـالـفِـلْسَـيـنِ مَـرْدودُ
أوْلى الـلّـئَـامِ كُـوَيْـفِـيرٌ بـمَـعْـذِرَةٍ في كـلّ لُـؤمٍ، وَبَعضُ العُـذرِ تَـفنيـدُ
وَذاكَ أنّ الـفُـحُـولَ الـبِـيضَ عـاجِـزَةٌ عنِ الجَميلِ فكَيفَ الخِصْيةُ السّودُ؟

وكان من أشهر أبيات الشعر التي هجا بها المتنبي كافورا:

لا تشـتري العبد إلا والعصـا معه إن الـعـبـيـد لأنـجـاس مـنـاكـيـد

(المتنبي. مرجع سابق. 507)

كما هجاه في قصيدته (أشخصاً لحت لي أم مخازيا) واصفا إياه بالجهل وتشقق أرجله حين تم استقدامه أول مرة:

أُرِيكَ الرّضَـى لوْ أخفَتِ النفسُ خافِيا وَمَـا أنَـا عنْ نَفســي وَلا عنـكَ رَاضِــيَـا
أمَيْنـاً وَإخْلافـاً وَغَـدْراً وَخِسّــةً وَجُبْنـاً أشَــخصــاً لُـحـتَ لي أمْ مـخـازِيـا
تَـظُـنّ ابـتِسَــامـاتي رَجـاءً وَغِـبْـطَـةً وَمَـا أنَـا إلاّ ضــاحِـكٌ مِـنْ رَجَـائِـيَـا
وَتُـعجِـبُـني رِجْـلاكَ في الـنّـعـلِ، إنّـني رَأيـتُـكَ ذا نَـعْـلٍ إذا كـنـتَ حَـافِـيَـا
وَإنّــكَ لا تَــدْري أَلَــوْنُــكَ أسْــوَد من الجهلِ أمْ قد صــارَ أبيضَ صــافِيَا
وَيُـذْكِـرُنـي تَـخـيـطُ كَـعـبِـكَ شَــقَّــهُ وَمَشــيَـكَ في ثَـوْبٍ منَ الـزّيـتِ عـارِيَـا
وَلَـوْلا فُضُــولُ النّـاسِ جِئْتُـكَ مـادحـاً بمـا كنـتُ في ســرّي بـهِ لـكَ هـاجِيَـا
فـأصْــبَحْـتَ مَســرُوراً بمَـا أنَـا مُنشِــدٌ وَإنْ كـانَ بـالإنْشــادِ هَـجـوُكَ غَـالِـيَـا
فـإنْ كُـنـتَ لا خَـيـراً أفَـدْتَ فـإنّـني أفَـدْتُ بلَحظي مِشــفَـرَيـكَ المَلاهِـيَـا
وَمِـثْـلُـكَ يُـؤتَـى مِـنْ بِـلادٍ بَـعـيـدَةٍ لـيُـضْــحِـكَ رَبّـاتِ الحِـدادِ البَـوَاكِـيَـا

كما هجاه في قصيدة أخرى بعنوان: أين المحاجم يا كافور؟ وأخرى بعنوان: كأن الحر بينهم يتيم، وأخرى بعنوان: أنوك من عبد ومن عرسه (المرجع نفسه. 500 – 505). وقد تلاحظ من خلال أوصاف المتنبي لكافور فقد كان يصف لونه وبعضاً مما كان يستخدمه كافور كسداد الشفاه وخلافه. فحين مات كافور ودُفن بالقدس بعد أن حُمل جثمانه إلى هناك وجد مكتوباً على شاهد قبره شعراً فيه:

مـا بـال قـبـرك يـا كـافـور مـنـفـرداً بالصّحصح المرت بعد العسـكر اللجب
يـدوس قـبـرك أحـاد الـرجـال وقـد كانت أسـود الشـرى تخشـاك في الكتب

كما وجد مكتوباً أيضاً:

انـظـر إلى غِـيَـرِ الأيـام مـا صــنـعـتْ أفـنـت أنـاســاً بـهـا كـانـوا ومـا فـنـيـتْ
دُنـيـاهـم ضــحـكـت أيـام دولـتـهـم حـتـي إذا فـنـيـتْ نـاحـتْ لـهـم وبـكـتْ

(المقريزي. مرجع سابق.27).

وهكذا استطاع رجل مثل أبي المسك أن يترك ذكراً طيباً في نفوس المصريين رغم النظرة السالبة له

من الكثيرين؛ حيث كتب عنه المتنبي هجاءاً مقذعاً في قصيدة له حين غادر مصر حانقاً على كافور وهو الذي كتب في كافور مادحاً:

وفي الناس من يرضـي بميسـور عيشـه ومـركـوبـه رجـلاه والـثـوب جـلـدهُ
ولـكـن قـلـبـاً بـيـن جـنـبيَ مـالـه مـدي يـنـتـهي بـي في مـرادٍ أحـدهُ

وقد وصف المتنبي كافوراً بـ"الأسود" و"العبد" نسبةً لأصوله وصفته التي جيء به من أجلها إلى مصر حيث كان ضمن من اشتراهم ملوك مصر إبان اتفاقية البقط كما أشرنا. وقد كانت نظرة المتنبي لكافور تسير وفقاً لطبيعة العلاقة بينهما حيث إن المتنبي على الرغم من هجائه كافوراً إلا أنه عاد وامتدحه مرات أخرى عديدة، الأمر الذي يؤكد الإسهام الكبير الذي قدمه كافور إبان توليه حكم مصر ما دفع المتنبي لمدحه والإعلاء من شأنه في فترات لاحقة وبعد موته.

مدح المتنبي لكافور

مدح المتنبي بعدد من القصائد الطوال، ولكن الملاحظ قصائد الذم هي التي اكتسبت الشهرة والتداول. ومن قصائده في مدح كافور المشهورة: كَفى بِكَ داءً ، والملك الأستاذ، ولا مجد في ، والدار المباركة فدى لأبي مسك الكرام، وحسم الصلح ما اشتهته الأعادي، وكل مكان ينبت العز طيب، ولمن قل ماله وغيرها (المتنبي. 441-477): وسنختار من الأولى بعض الأبيات:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شـافِيا وَحَسـبُ المَنـايا أَن يَكُـنَّ أَمـانِيا
حَبَبتُكَ قَلبي قَبلَ حُبِّكَ مَن نَأى وَقَـد كـانَ غَـدّاراً فَـكُـن أَنـتَ وافِـيا
وَأَعـلَـمُ أَنَّ الـبَـينَ يُشـكـيكَ بَـعـدَهُ فَلَسـتَ فُؤادي إِن رَأَيتُـكَ شـاكِيا
قَـواصِـدَ كـافـورٍ تَـوارِكَ غَـيـرِهِ وَمَن قَصَـدَ البَحرَ اِسـتَقَلَّ السَـواقِيا
فَـجـاءَت بِـنـا إِنسـانَ عَـينِ زَمـانِـهِ وَخَـلَّـت بَـيـاضـاً خَـلـفَـهـا وَمَـآقِـيا
نَجـوزَ عَـلَـيهـا المُحسِـنينَ إِلى الَّـذي نَـرى عِـنـدَهُـم إِحسـانَـهُ وَالأَيـادِيـا
فَتىً مـا سَـرَيـنـا في ظُهـورِ جُـدودِنـا إِلى عَصـرِهِ إِلّا نُـرَجّي الـتَـلاقِـيـا
أَبا المِسـكِ ذا الوَجهُ الَّذي كُنتُ تائِقاً إِلَـيـهِ وَذا الـوَقـتُ الَّـذي كُـنـتُ راجِـيـا
لَـقـيـتُ المَرَورى وَالشَـنـاخـيـبَ دونَـهُ وَجُـبـتُ هَجـيراً يَـترُكُ المـاءَ صـادِيـا

أَبا كُلِّ طيبٍ لا أَبا المِسكِ وَحدَهُ وَكُلَّ سَحابٍ لا أَخَصُّ الغَوادِيا

يَدِلُّ بِمَعنىً واجِدٍ كُلَّ فاخِرٍ وَقَد جَمَعَ الرَحمَنُ فيكَ المَعانِيا

إِذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بِالنَدى فَإِنَّكَ تُعطي في نَداكَ المَعالِيا

وَغَيرُ كَثيرٍ أَن يَزورَكَ راجِلٌ فَيَرجِعَ مَلكاً لِلعِراقَينِ والِيا

وَما كُنتَ مِمَّن أَدرَكَ المُلكَ بِالمُنى وَلَكِن بِأَيّامٍ أَشَبنَ النَواصِيا

عِداكَ تَراها في البِلادِ مَساعِيا وَأَنتَ تَراها في السَماءِ مَراقِيا

لَبِستَ لَها كُدرَ العَجاجِ كَأَنَّما تَرى غَيرَ صافٍ أَن تَرى الجَوَّ صافِيا

وَقُدتَ إِلَيها كُلَّ أَجرَدَ سابِحٍ يُؤَدّيكَ غَضباناً وَيَثنِيكَ راضِيا

وَمُختَرَطٍ ماضٍ يُطيعُكَ آمِراً وَيَعصي إِذا اِستَثنَيتَ لَو كُنتَ ناهِيا

وَأَسمَرَ ذي عِشرينَ تَرضاهُ وارِداً وَيَرضاكَ في إيرادِهِ الخَيلَ ساقِيا

وَأَنتَ الَّذي تَغشى الأَسِنَّةَ أَوَّلاً وَتَأنَفَ أَن تَغشى الأَسِنَّةَ ثانِيا

إِذا الهِندُ سَوَّت بَينَ سَيفَي كَريهَةٍ فَسَيفُكَ في كَفٍّ تُزيلُ التَساوِيا

مَدىً بَلَّغَ الأُستاذَ أَقصاهُ رَبُّهُ وَنَفسٌ لَهُ لَم تَرضَ إِلّا التَناهِيا

فَأَصبَحَ فَوقَ العالَمينَ يَرَونَهُ وَإِن كانَ يُدنيهِ التَكَرُّمُ نائِيا

ومن قصيدة الملك الأستاذ نختار:

مِنَ الجَآذِرُ في زِيِّ الأَعارِيبِ حُمرَ الحُلى وَالمَطايا وَالجَلابيبِ

تَرَعرَعَ المَلِكُ الأُستاذُ مُكتَهِلاً قَبلَ اِكتِهالٍ أَديباً قَبلَ تَأديبِ

مُجَرَّباً فَهِماً مِن قَبلِ تَجرِبَةٍ مُهَذَّباً كَرَماً مِن غَيرِ تَهذيبِ

حَتّى أَصابَ مِنَ الدُنيا نِهايَتَها وَهَمُّهُ في اِبتِداءاتٍ وَتَشبيبِ

يُدَبِّرُ المُلكَ مِن مِصرٍ إِلى عَدَنٍ إِلى العِراقِ فَأَرضِ الرومِ فَالنُوَبِ

يُصَرِّفُ الأَمرَ فيها طينُ خاتِمِهِ وَلَو تَطَلَّسَ مِنهُ كُلُّ مَكتوبِ

يَحِطَّ كُلَّ طَويلِ الرُمحِ حامِلُهُ مِن سَرجِ كُلِّ طَويلِ الباعِ يَعبوبِ

كَأَنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مَسامِعِهِ قَميصُ يوسُفَ في أَجفانِ يَعقوبِ
إذا غَزَتهُ أَعاديهِ بِمَسأَلَةٍ فَقَد غَزَتهُ بِجَيشٍ غَيرِ مَغلوبِ
أَو حارَبَتهُ فَما تَنجو بِتَقدِمَةٍ مِمّا أَرادَ وَلا تَنجو بِتَجنيبِ
وَكَيفَ أَكفُرُ يا كافورُ نِعمَتَها وَقَد بَلَغتَ بي يا كُلَّ مَطلوبي
يا أَيُّها المَلِكُ الغاني بِتَسمِيَةٍ في الشَرقِ وَالغَربِ عَن وَصفٍ وَتَلقيبِ
أَنتَ الحَبيبُ وَلَكِنّي أَعوذُ بِهِ مِن أَن أَكونَ مُحِبّاً غَيرَ مَحبوبِ

خاتمة:

إن حياة كافور الإخشيدي كانت مليئة بالإنجازات السياسية والاجتماعية والتي بسببها نالت الدولة الإخشيدية شهرة ومكانة، فعند دخوله إلى الدولة الإخشيدية شغل بها الناس جميعا وعند خروجه منها لم يشأ أحد أن يتحدث عنها فخرجت بخروجه هذه الدولة وأصبحت ذكرى وعبر ما يعني ارتباط الدولة به حيث استأثر بتاريخ هذه الدولة حين كان لها تاريخ باعتباره المؤسس الحقيقي والفعلي لها. فمثلما عرف عنه العدل وقضاء حوائج الناس وقربه منهم، كذلك تميز بقدرته على تدبير الملك، وقد عاش كافور وحكم الدولة كما حكمها ملوكها من قبله إلا أنهم لم يملؤوا الوجود كما ملأه كافور، ولم يشغلوا الناس والشعراء كما شغلهم كافور مثلما حدث له مع المتنبي الشاعر المشهور والكبير والمؤثر آنذاك والذي مدحه ثم ذمه وأصبح اسما دائما في شعره، ولعل ظهوره في مسرح الأحداث منذ فترة مبكرة وطموحه وذكاءه قاده إلى هذه المكانة المرموقة التي بلغها. ولأنه من قواد السودان وعظمائه فلماذا لا ينصفه الذين يكتبون عن تاريخ السودان نقلاً عن كتابات ومذكرات الأجانب من الغربيين والمصريين، فبعضها تنقصه الدقة التي تناولوا بها قضايا التاريخ السوداني وأحداثه ، بالتركيز على الجوانب التي تخدم أغراضهم، وقد سار على نهجهم الكثيرون من كتّاب التاريخ السودانيين حيث نجد دائما ما ينصب تركيزهم فقط على أبطال تاريخ السودان الحديث ربما لجهل أو ضعف المعلومة. بينما نجد العديد من منسوبي المدرسة المصرية يتجاهلون تناول تاريخ كافور ربما لأنه سوداني أو أنه أسود وهو ما جعلهم يسعون إلى عدم التطرق إلى سيرته وتهميش دوره في حكم مصر، ولعل ما يؤكد ذلك هو الضعف والقلة في المصادر التي تناولت تاريخ كافور الإخشيدي بينما نجد أعدادا كبيرة من الكتب والمجلدات التي كتبت عن حكام آخرين أقل إسهاما ومكانةً، وبالتالي فإننا لا نجد مبررا كافيا لهذا التجاهل من الكتّاب السودانيين الأمر الذي يحتم إبراز دور هذا القائد والحاكم السوداني باعتباره أول سوداني ينال صفة خليفة المسلمين وبالتالي يجب الاحتفاء به وتكريمه بتسمية مؤسسات علمية وإدارية أو عدلية تقديرا لإنجازات هذا الحاكم العظيم ومكانته.

المصادروالمراجع

المراجع العربية

- إبراهيم الأبياري، **أبو المسك كافور**، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، (1962م).
- المتنبي ، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت: 354هـ)، **ديوان المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.
- المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت:845 هـ): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، الجزء الثاني، دار صادر بيروت، (د.ت).
- ابن منظور ، الإمام محمد بن مكرم ، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر(ت: 711هـ)**، الجزء الأول، فضائل الشام وخطط دمشق، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (1984م).

المراجع الأجنبية

- Azhari Mustafa Sadig. (2010). *The Neolithic of the Middle Nile Region. An Archaeology of Central Sudan and Nubia*. Nile Basin Research Programme Publications. University of Bergen. Norway. Publisher: Fountain Publishers. http://nile.uib.no/publications/index.php#neolithic